الفصل الحادى عشر

ماذا عن المرأة الأخرى ؟

عند دراسة العوامل المختلفة التى تضعف من الحب وتقضى عليه حذفت العامل الأساس – المرأة الأخرى – وقد تعمدت ذلك ؛ لأنه يصل إلى قدر كبير من الأهمية فى كثير من الزيجات بحيث ينبغى تناوله على حدة .

ومشكلة المرأة الأخرى تصبح مشكلة حرجة بصفة أخص فى مرحلة انقطاع الطمث ، إذ إنها هى المرحلة التى تخشى المرأة فيها أن يكون جمالها قد بدأ يذبل ، وأن زوجها سيتحول عنها إلى امرأة أكثر شبابا وجاذبية . ولعل هذا أن يكون أشد خطرٍ يواجه المرأة المتزوجة حين تدخل فى فترة تغيير الحياة . ثم يزيد ما ينطوى عليه من اضطراب أنه غالباً ما يكون قائماً على غير أساس إطلاقاً وأنه لا يزيد عن كونه خوفاً وهمياً .

والواقع أن المرأة الأخرى فى كثير من الحالات لا وجود لها إلا فى ذهن المرأة المتشككة . وفى أغلب الأحيان لا يكون الزوج قد فكر أو بحث عن أية امرأة أخرى فضلاً عن أن يكون قد أقام علاقة معها . والمرأة التى تسمح لخيالها أن يرسم لها منافسة فى الحلم ستجد أنها سوف تخلق منافسة حقيقية فعلاً . وهذه عملية منطقية بقدر ما هى قاسية وهدامة .

فالخطوة الأولى هى بطبيعة الحال بداية مرحلة انقطاع الطمث وما يصحبها من خوف وقلق بصدد المستقبل : هل ستفقد جمالها وحلاوتها ؟ أفلا تتمكن من أداء وظائفها الجنسية بعد التغيير ؟ هل ستعانى من وهن جسمانى ؟ هل ستصبح امرأة مسنة ذابلة ؟ هل ستفقد حب زوجها ؟ ليس هناك حدود للمخاوف التى تهاجم ذهن المرأة فى هذه الفترة **إذا سمحت لها بمهاجمتها** .

والخطوة الثانية تنتج من هذه الأفكار السوداء والمخاوف ، فستصبح أكثر استثارة عن ذى

قبل ، وتضحى الحياة معها أكثر مشقة ، وتصبح أسرع انفعالاً وتتحول إلى امرأة متعبة حقًّا وغير مريحة وشرسة .

وهذا يقيناً مثل لحالة شديدة ، ولكنه ينطبق بدرجات متفاوتة على كل امرأة تترك نفسها للمخاوف الوهمية لمرحلة انقطاع الطمث . فالخوف يتغذى على الخوف ، وكلما زاد ما تطلقه المرأة من وحوش الأحلام فى ذهنها زاد ما تلقاه منها فى الواقع .

ثم تلى الخطوة الثالثة حين يصبح الزوج سريع الإثارة وحيداً وقد طواه « القرف » ، ومن الجائز أنه حاول أن يتفهم حالتها ويتعاطف هو وزوجته ، ومن الجائز أيضاً أنه بذل مافى وسعه لإرضاء زوجته وتهدئتها والاستسلام لنزواتها غير المعقولة . ثم من الجائز أنه حاول تجاهل : غيرتها وشكوكها التى لا أساس لها . ولكن النتيجة النهائية لسوء الطالع لا تكاد تخالف ما لو أنه لم يكن قد عمل أى شىء لمساعدتها . وفى نهاية الأمر سيصل هو إلى نقطة الانهيار ، فإن الرجل مهما يكن حظه من التقدير أو الشفقة إنسان قبل كل شىء ، وليس قديساً . وأعصاب المرء ومزاجه لها حدود لا يمكن تجاوزها إذا أسىء استعمالها . ومن ثم فإن الوقت سيأتى حين يشعر أنه أخذ ما يكفيه وأنه لا يستطيع التحمل أكثر مما احتمل ، وعندئذ سوف يقرر أن يجعل فعله مطابقاً لاسمه .

والخطوة الرابعة والأخيرة هى التى اعتاد الناس مشاهدتها فى التمثيليات وأفلام السينما والروايات والقصص القصيرة ، وهى تتلخص فى موقف الزوجة والزوج الذى أسىء فهمه والمرأة الأخرى : فالمجتمع عادة يدين الزوج حين يحدث هذا ، فيصوره فى صورة العابث المستهتر الوغد ، وغالباً ما يكون هذا الحكم القاسى مجافياً للإنصاف ؛ لأن الزوجة كثيراً ما تكون هى الملومة على عدم وفاء زوجها لها ؛ فهى التى دفعته إلى أخرى ليبحث عندها عن الحنان والتقدير والتفهم والعطف الإنسانى التى لم يجدها لديها .

وينبغى على الزوجة المقبلة على منتصف العمر أن تدرك أن هذا الخطر الجسيم لا يوجد إلا فى ذهنها وحسب . بيد أن هذا لا ينفى أن كثيراً من الأزواج يفعلون بأنفسهم ولا يحتاجون فى ذلك إلى أى حث من زوجاتهم . ولكن الواقع أنه إذا كان لدى رجل الاستعداد للعبث والرغبة فيه فلن ينتظر حتى يبلغ سن الخمسين أو الخامسة والخمسين ليفعل ذلك ؛ لأنه سيبدأ العبث بمجرد أن تزول حدة الزواج . ولن تحتاج الزوجة إلى الانتظار لمرحلة انقطاع الطمث

لكى تكتشف هذه الحقيقة عن زوجها . . ومن ثم يمكننا إذن أن نستبعد العابثين ونماذج دون جوان من المناقشة الحالية ؛ إذ إن هؤلاء لا يحتاجون إلى زوجة متعبة أو عصبية لتدفعهم لهذا الطريق المنحدر . أما الموقف الذى نبحثه هنا فإنه مختلف عن ذلك تماماً ؛ لأن الزوج المتوسط العمر فى العادة لا يميل كثيراً وليس لديه الطاقة الكافية لإقامة علاقات جديدة . ولو بدأت الزوجة بهذا الفرض أمامها فسوف تقتصد على نفسها الكثير من الحزن والألم . أما إذا اختارت الفرض المضاد – أى فرض وجود امرأة أخرى – فستجد أنها خلقت لنفسها وحش فرانكشتين .

وفى معظم الحالات : إما ألا يكون للمرأة الأخرى وجود إطلاقاً أو إذا وجدت فعلاً فوجودها ناتج عن خيال الزوجة وسوء طبعها وغيرتها ، ولكن برغم ذلك فإن المرأة الأخرى كثيراً ما توجد فى الواقع كما فى الخيال ، دون أن يكون وجودها دائماً نتيجة خطأ الزوجة .

فإذا حدث هذا الموقف فإنه يقتضى كل ما عند الزوجة من شجاعة ودهاء وحذق إذا شاءت أن تواجه هذا التحدى بنجاح . وما من شك فى أنها طعنة كبيرة لكبريائها ، ومن المحتمل أن تطغى عواطفها على سلامة تقديرها فلا تتمكن من التقليد الواضح حتى تكافح ما يتهددها بذكاء بدلاً من محاربته بالعاطفة .

ومن ثم ينبغى أن تتخلص فوراً من جميع مشاعر الكبرياء ، الجريحة والكرامة والحنق ، حتى لو سلمنا بأنها محقة من الوجهة المعنوية وأن زوجها مترن فإن الموقف فى حقيقته ليس مجرد معضلة هندسية أو قضية ينظرها القانون ، ولكنه موقف يطوى معه انفعالات ورغبات إنسانية عميقة وقوية . وليس هناك كسب لأحد من إثبات أى الطرفين على صواب وأيهما المخطئ إذا وجد من يجوز أن يكون صوابه أو خطؤه مائة فى المائة فى مثل هذه الحالات ؟ ومن هنا فإن الهدف الوحيد للزوجة الحكيمة ينبغى أن يكون إرجاع زوجها إليها مرة أخرى أما إذا كانت أكثر اهتماماً بتجنب هوان الموقف وتهدئة كرامتها الجريح فمن الخير لها أن تتجنب المعركة كلية ، وتسلم زوجها إلى المرأة الأخرى !

فلنسلم إذن بأن الزوجة أكثر اهتماماً بالتمسك بزوجها منها بالثأر لنفسها فما الذى يمكنها عمله ؟

أولاً : ينبغى عليها معالجة الموقف بتفهم وتحمل وأناة ، والنظر إليه كنوع من المرض مثل

الاضطراب العقلي أو العاطفي ، كما ينبغي ألا تنظر إليه كمحاولة متعمدة من جانب زوجها لإيذائها وتحطيمها . فالحب شيء لا يمكن فرضه ، بل ينبغي اكتسابه والعمل من أجله بتفرغ . فإذا حدث أن انجذب رجل متزوج إلى امرأة أخرى فذلك لأنه :

(ا) أصبح لا يشعر بجاذبية نحو زوجته الحالية .

(ب) يجد المرأة الأخرى أكثر جاذبية منها .

ولا يوجد رجل يقول لنفسه «حسناً ، سوف أجعل زوجتي بائسة بتكوين علاقة بامرأة أخرى» . ولذلك ينبغي على الزوجة أن تنظر إلى الموقف بعطف ، وتبقى إلى جانب زوجها محتفظة بوفائها له كما لو كان قد أصيب بمرض الشلل أو وقع في أي نوع آخر من المتاعب . وينبغي أن تجعله يرى أنها مازالت تؤمن بأنه يستحق أن تكافح من أجله ، وأنها مازالت ترغب في حبه ، وأن كبرياءها لا يمنعها عن العمل على استعادة هذا الحب .

ثانياً : ينبغي على الزوجة التي لديها منزل وأسرة أن تضع عند اعتبارها دائماً أن السفينة أهم بكثير من أي من ملاحيها : فعليها أن تعمل ما في وسعها لإنقاذ أطفالها وزواجها ، ولكنها إذا سمحت أن تصور أعمالها واستجاباتها عن الكبرياء بدلاً عن الحب فإنها تثبت بذلك زوجها على سلوكه ، والنتيجة الحتمية لذلك هي الانفعال والطلاق . وهذا من ثم سينالها وينال أطفالها بقدر كبير من الأذى دون زوجها أو المرأة الأخرى .

ثالثاً : وإذا كانت ترغب مخلصة في إنقاذ السفينة من الغرق فينبغي ألا تحرض الأطفال ضد أبيهم ، بل ينبغي ألا تجعلهم يعرفون شيئاً عن انحرافه ، فإذا تبينوا ذلك بأنفسهم فعليها ألا تؤثر عليهم ، وسوف يكون هذا شاقًّا عليها ، لأن جميع عواطفها ستدفعها إلى الاتجاه العكسي . وينبغي أن تراعي عدم تسميم عقولهم . وإذا فشلت في ذلك فلن تكون النتيجة إلا زيادة استياء زوجها وغضبه وإبعاد أطفاله عنه أكثر ، وبذا تقوى من قبضة المرأة الأخرى عليه .

رابعاً : ينبغي أن تكون واقعية وتدرك أن المرأة الأخرى لا تمثل لزوجها أكثر من وسيلة لإشباع جوع بدني محض ، في حين أن الزوجة تستمر تمثل أقوى مركز اجتماعي وروحي في حياته . وهذا يصدق بصفة خاصة إذا كان الشبع الجسمي قد أوهن حبه لزوجته . وفي هذا المعنى قال «جيون» :

« تشكو كثير من النساء أن أزواجهن يهجرونهن بدون سبب ، ولكن الحقيقة الشائعة والمأساوية أن الزوج قد أصبح غير قادر جنسيًّا لشعوره بالشبع إزاء زوجته . وفى شعوره باليأس بسبب عجزه عن أداء واجباته الزوجية فإنه يندفع وراء خليلة عابرة يستعيد معها رجولته » .

ولكن هذا الموقف لا يستدعى بالضرورة أن يكون « مأساويًّا » إذا كانت الزوجة على درجة من الحكمة تجعلها تتفهم الموقف وتتناوله بحذق عطوف . وحيثما كان لدى الزوجة من الحكمة ما يتيح لها معالجة الموقف بدون انفعال – فإنها سوف تربح : ذلك أن الرجل العادى يرغب غريزيًّا فى المحافظة على بيته وأسرته ، كما يرغب أيضاً فى المحافظة على احترام أطفاله ورأيهم الحسن فيه ، وكذلك أيضاً جيرانُه وأصدقاؤه وأسرته ومعارفه . والرجل الأمريكى بمؤثرات حياته المبكرة ويحكم البيئة ليس عابثاً أو « ذئباً » . إنه على العكس من ذلك يحترم ويتمسك بقدسية المنزل والمرأة والحياة العائلية . فجميع غرائزه وخبراته تدفعه إلى الرجوع إلى بيته فى النهاية على الرغم من محاولته تذوق بعض الفاكهة المحرمة من الخارج !

ولا شك أن هذا العامل فى مصلحة الزوجة . فإذا كانت مقودة بعقلها وليس بعاطفتها فسوف تستطيع أن تهزم منافستها وتكسب الجولة .

وفى الواقع أن كل نظام للزواج نفسه – ولا سيما فى الولايات المتحدة – يحمى الزوجة . وعلى الرغم من أن عاداتنا فى الزواج من الصعب اتباعها فإنها تعطى المرأة كل الميزات . فقوانيننا وتقاليدنا متفقة على مستوى معين للزواج ، لا يسمح للرجل أو المرأة إلا بزواج شرعى واحد فى وقت معين ، وهذا الوضع يلقى من التبجيل عند عدم مراعاته أكثر مما يلقى عند مراعاته ، وخاصة فى حالة الرجل . ومع ذلك فإن أى كسر لعهد الزواج يعد وفقاً للقانون زِنىً ويشكل جريمة موجبة للعقاب : فالزوجة هى كل ما يسمح به للرجل من النساء ، ومن ثم فإنه حين يتزوج فتى وفتاة فإن كلا يمثل للآخر الإنسان الوحيد « المثالى » من جميع بلايين الناس فى هذا العالم . وواضح أن هذا هدف متعذر ويكاد يكون مستحيلاً على نحو ما قالت مارجريت ميد :

« إن صورة الزواج الأمريكى من أوضح الأمثلة على إصرارنا على التعلق بالمستحيل ، فإنه واحد من أشق صور الزواج التى عرفها الجنس البشرى ، وضحاياه قليلون إلى درجة تدعو إلى الدهشة إذا راعينا ما ينطوى عليه من تعقيدات . ولكنه كمثل أعلى من الارتفاع ومشقاته من

الكثرة بحيث يعد – على سبيل اليقين – قطاعاً من الحياة الأمريكية يحتاج إلى مراجعة شديدة للعلاقة بين المثل الأعلى والممارسة الفعلية»[1].

ولكن الزواج الأمريكى يتجه على نحو مؤكد إلى مصلحة الزوجة أكثر مما يتجه إلى مصلحة المرأة الأخرى . فبمجرد موافقة الرجل على رابطة الزواج فإنه يكون قد وافق على أن تحتل زوجته المركز الرئيس فى حياته .

وفى أحيان قليلة قد يكون من المتعذر دفع المرأة الأخرى بعيداً عن الصورة ، وهذا أمر نادر الحدوث لحسن الحظ ، وسببه عادة بقاء الزوجة على جهل بالأمر لمدة طويلة أو دعمها العلاقة غير الشرعية بما اتخذته إزاءها من اتجاه عدائى مرير خال من حسن التصرف .

وحين يحدث ذلك فخير ما يمكن الزوجة عمله أن تتقبله بوقار وتتجاهل وجوده وتأمل تحسن الأمور وينبغى أن تذكر أن الرجال يعجبون دائماً بمن يتقبل الهزيمة قبولاً حسناً ويعطفون عليه والمثل يقول : – من صبر نال – ومن ثم فإن الزوجة التى تصبر كثيراً ما تتغلب على الخليلة لمجرد أنها فاقتها صبراً .

ولكن مهما تكن الطريقة التى تختارها الزوجة لمواجهة الموقف فهناك شىء واحد ينبغى ألا تعمله تحت أى ظرف : ينبغى ألا تستخدم تقصير زوجها إطلاقاً كعذر لها للخداع ؛ لأن هذا الاتجاه يؤدى دائماً إلى كارثة بما يزود الزوج من أسباب إضافية ومبررات لسلوكه المنحرف .

وذات يوم اعتقدت إحدى مريضاتى ولنسمها برنيس روبرتسن أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى ، ولم يكن لديها من دليل على اعتقادها هذا سوى غيرتها وشكها و «هوسها الأنثوى» . فقررت أن تنتقم لنفسها بأن تكون غير وفية هى أيضاً مع إعلام زوجها بذلك . وحتى هذا الوقت كان الزوج مخلصاً تماماً على الرغم من شكوكها . فلما اكتشف سلوك زوجته قرر هو الآخر أن يكون له نصيبه من السلوك المنحرف . ولنسم هذه الحالة ، إذا شئنا ، مأساة من الأخطاء ؛ لأن حياتهما معاً انتهت آخر الأمر فى محاكم الطلاق .

(١) مارجريت ميد من أبرز العلماء الأمريكيين المعاصرين فى الإنثروبولوجيا الاجتماعية ؛ ولها فى هذا الميدان دراسات رائدة وخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة وبأساليب تنشئة الأطفال فى الأوضاع الحضارية المختلفة . وقد رأينا إيراد رأيها هذا على علاته وإن كنا نعرف أنه لا يعطى صورة حقيقية أو دقيقة عن الحياة الزوجية الأمريكية ، وحسبنا فى هذا الشأن أن نذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية فى مقدمة دول العالم من حيث ارتفاع نسبة الطلاق فيها وانتشار جناح الأحداث وإدمان المخدرات بين الشباب ... إلخ . وكلها من المظاهر التى لا تخفى دلالاتها على التفكك والتصدع الأسرى (المشرف) .

إن الزواج هو كل عمل المرأة ووظيفتها فى الحياة . وهو يعنى لها أكثر جدًّا مما يعنى للرجل العادى . ولكن قاعدته الأساس – وهى فكرة الإخلاص الدائم لإنسان واحد وإنسان واحد فقط فى خلال ما يتبقى للفرد من حياة – غريبة بالنسبة لطبيعة الرجل الداخلية العميقة ، فهو بغريزته يبغض مسئوليات الزواج ؛ لأنه بغريزته صياد وجائل وروح حرة ، ولكن كلما تقدمت به السن وزاد به التعب قل حماسه للصيد وزاد توقه إلى مكان هادىء يستقر إليه ويرتاح فيه . ومن ثم فلكى نجعل الزواج يبدو مشرقاً ولا سيما للشاب فعلى المرأة أن تنبه لدى الرجل غريزة أساساً أخرى هى رغبته فى الانتماء وإيجاد مكان يشعر بأنه ملك له ، وعليها أن تشعره بقدرتها على مساعدته فى تكوين بيت واستعدادها للفناء إلى أبعد الحدود فى سبيل المحافظة عليه ؛ لأن هذه هى الشروط الفريدة التى يقبل الرجل على أساسها النزول عن حريته وانطلاقه ، وقد يبدو هذا مجافياً للإنصاف ، وهو من الناحية المنطقية المحضة مجاف للإنصاف فعلاً ، ولكن الحياة نفسها غير منطقية ، ومن ثم فإنه ينبغى على المرأة العاقلة أن تكون واقعية ، وأن تدرك أنه كثيراً ما يتحتم عليها أن تعطى الزواج أكثر مما تأخذ منه ، فإن النجاح فى الزواج يعتمد آخر الأمر على قدر ما يعطيه المرء أكثر مما يعتمد على قدر ما يأخذه منه .

وينطبق هذا بصفة خاصة على مشكلة المرأة الأخرى : فإذا كانت الزوجة مهتمة بالعطاء أكثر من الأخذ فسيتجه تفكيرها أكثر إلى كيفية إعادة زوجها إلى عشها لا إلى التفكير فى كيفية عقابه وتحطيم منافستها . وهى ستدرك أيضاً وخاصة حين تقرب سن تغيير الحياة – أن المرأة الأخرى قد تكون وليدة خيالها لا غير . ولكن حتى إذا كان للمرأة الأخرى وجود فى الواقع ففى وسع الزوجة هزيمتها عن طريق محاربتها بذكاء . وفى التحليل الأخير فإن المرأة الأخرى تكتسب من الأهمية قدر ما تضفيه الزوجة عليها .